المورد

العربية قبل سيبويه وبعده

بقلم

ابراهيم العريض

البحرين

انني اقرر بكل تواضع ، ما هو عندي في حكم البداهة بالنسبة الى اللغة العربية ، قبل ان اتبسط في الموضوع شرحا وتعليقا .

اولا ـ ان اللغة العربية التي ظلت تتدارسها ـ قراءة وكتابة ـ الشعوب الاسلامية ، تفقها في الدين وتفقها في الادب ، منذ القرن الثاني للهجرة ، انما هي لغة حضارية مشذبة مهذبة اخذت بها هذه الشعوب الداخلة في الاسلام (غير العرب طبعا) عن طريق الكتابة والدرس ، وهي تختلف في معاناتها النفسية وملابساتها الاجتماعية ودلالاتها القومية عن لغة البادية التي كان العرب في اوطانهم ـ بمختلف لهجاتهم ـ يتحاورون بها على سليقتهم ، ولا زالوا يفعلون ذلك تلقائيا الى اليوم في انحاء عالمنا العربي . وهي التي حاول النحاة ـ من غير طائل ـ تلمس شواهدها في الشعر الجاهلي ، واختلفوا في امرها في شعر الفرزدق في صدر الاسلام ، ثم تنكروا لها كليا فيما رأوا من آثارها في شعر المتنبي في القرن الرابع الهجري . فاساءوا بذلك الى اللغة والى انفسهم .. لولا العلامة ابن جني الذي تدارك الموضوع وكان « عالما » بمعنى الكلمة فوضع لهم حدا .

ثانيا ـ ان قواعد هذه اللغة التي يتدارسها الطلاب في مدارسهم كما وضعها ـ ولا اقول استنبطها ـ النحاة ، لتيسير درس اللغة حسب منطق ارسطو هي ابعد ما تكون عن الاحاطة بالشواهد الشعرية والآيات القرآنية التي تنحو نحوا يختلف عنها في كثير من الاحيان ، مما وقع معه اصحاب المدارس النحوية في تناقض مع انفسهم ، وصح معه القول :

اضعف من حجة نحوي !

تندرا بهؤلاء .

ان غرضي من طرح الموضوع على هذا الشكل هو ان الفت النظر الى ضرورة اعادة النظر من جديد في هيكل وبناء هذه اللغة الكريمة شكلا وموضوعا ، على غرار ما تم عند سوانا من تقص في مثل هذه الدراسات حول لغاتهم ـ منذ استهل هذا القرن ، وها قد اشرف الآن على نهايته ـ لا ان نظل نجتر كالببغاء ما قاله القائلون منا قبل مئات السنين دون وضعه على المحك . فاللغة عند العلماء المعاصرين هؤلاء ، بخلاف ما يريده لها نحاتنا القدماء ، دائبة في التطور غير جامدة . وما ذلك الا لان المعول في هذه الدراسات اللغوية الحديثة التي يتبنونها هو على اللغة الحية التي يتحاور بها الناس تلقائيا في شتى امورهم ، لا تلك التي تستبطنها الكتب محنطة كالمومياء . فما يستلخص من قواعد لا يجوز بحال ان تكون كبولا يمنعها التنفس والحياة ، كما ظل الحال عندنا الى امس القريب بالنسبة الى الفصحى ، ولا ان تكون قاصرة عن احوالها الدارجة .

والآن فلنتبسط في الموضوع .

اذا عدنا بالذاكرة الى الوراء ابان الفتوحات الاسلامية الاولى الفينا كثيرا من الشعوب والامم تنضوي تحت لواء الاسلام وتسعى جاهدة لتعلم احكام هذا الدين الجديد وتلاوة آيات محكم كتابه العزيز وهو القرآن الكريم ، لذلك لابد لهم من تعلم اللغة العربية .

وهذا سبب ديني .. يضاف اليه سبب اجتماعي يتجلى في الرغبة العارمة لدى تلك الشعوب والامم في السعي نحو التفاهم في شؤون حياتها اليومية مع السادة الجدد .

ومن الطبيعي ان كل متعلم للغة لابد وان يخطىء في ادائها .. وهذا ما يسمى بـ « اللحن ».

واللحن انواع : لحن صوتي في طريقة نطق الحروف والكلمات ، ولحن اسلوبي في طريقة نظام الجملة وحركات اواخر الكلمات فيها .

وهناك لحن اخر نشأ على يد الذين قرأوا القرآن ولم يكن في اول امره منقطا ولا مشكلا .. ولهذا وقع البعض في اخطاء فاحشة فقد قرئت الآية « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله .. وهذا خطأ شنيع ..وكان الصواب ان تفتح اللام على العطف او ترفع على الابتداء .. فقام ابو الاسود الدؤلي بمهمة التنقيط والتشكيل ، وكان التشكيل عبارة عن نقطة بين يدي الحرف او فوق الحرف او تحته بلون مغاير للون الحروف المكتوبة وما استحدث لها من نقاط تمييزا لبعضها عن بعض .

ثم جاء الخليل بن احمد وقام بمهمة التشكيل بالطريقة المألوفة حاليا .

وهكذا قضي على نوع من الوان اللحن .. وبقيت الاخطاء الصوتية واللغوية والاسلوبية .ومن الملاحظ ان هذه الاخطاء كانت معظمها من الشعوب والامم غير العربية ، لان العرب كانوا ينطقون لغتهم بالسليقة ، كمهارة من المهارات البشرية .. ينشأ عليها ناشيء الفتيان منهم ، كما هو الحال عند سائر الشعوب في تواجدها الى اليوم .

وليس معنى هذا ان العرب كانوا لا يخطئون ـ على مستوى الافراد ـ احيانا ، لقد كانوا مثل غيرهم يخطئون .. الا انها اخطاء قليلة لا تغض من شأن قائلها ، هذا اذا اخطأ في لغة قبيلته .لكن لغة قبيلته لا تعد خاطئة اذا قيست الى لغة القبائل الاخرى .. فهذه ليست اخطاء ، انما هي لغة العرب ، تنوعت في صور ادائها ونحو اسلوبها .

وهذا يختلف اختلافا كليا عن تلك الاخطاء التي وقعت فيها تلك الامم والشعوب غير العربية .

* * *

ان الفرق بين ما يسميه النحاة في كتبهم (مما ينكرونه في منطوق العرب) « اخطاء » وتلك التي تجري على لسان غير العربي هو ان الاولى يمكن تأويلها من خلال ادراكنا لاسرار اللغة العربية وتنوع لهجاتها وصور ادائها ومناحي اسلوبها ، كما سوف اعرض عليكم من شواهدها بعد ، اما الثانية فلا تبرير لها من خلال واقعنا اللغوي الذي هو الاساس والفيصل في المقارنة والحكم .

وكان لابد من جمع شواهد اللغة العربية لوضع القواعد الضابطة لها .. فقام الرواة واللغويون بعملية الجمع .. تارة على اساس الواقع اللغوي كما نجده في كثير من مسائل التصريف ، وطورا على اساس احتمالاته كما نجده في الافتراضات النحوية التي لا اساس لها من الواقع ، وشواهد كل ذلك موجودة في كتاب سيبويه ونادرا على اساس الاستيعاب كما فعل في كتاب « العين » حيث استخرج الكلمات كلها من اصلها الثلاثي ثم اسقط المهمل منها .

واحس العلماء بالفرق بين بعض اساليب اللغة المنطوقة وبين كونها مكتوبة ، فبعض الرموز اللغوية قاصرة عن مستوى الاداء الصوتي ، ولان الكتابة العربية في احسن احوالها ليست الا اختزالية ولا يمكن ان تعطي صورة معبرة عن منطوق الناس ، كما نجد بدقة اكثر عند سوانا : ففي اللغة السنسكريتية مثلا لنطق الالف بكل امالاته اكثر من ثمانية اشكال معبرة ، بينما لا يتعدى عندنا شكله الواحد رغم كثرة الامالات كما هو واضح في بعض القراآت القرآنية او لهجات القبائل وهذا ادى بدوره الى نشأة كثير من المباحث الصوتية ، نجد بعضها وارد في كتاب سيبويه ، مما ادى عند بعضهم الى اشكالات كثيرة .

وكان لابد من تيسير اللغة للاعاجم رغم كل هذه الاشكالات ، فتعمد سيبويه الى استنباط قواعد نحوه وصرفه على اساس الاغلبية دون ان يحددها (وقد انكرت عليه ذلك مدرسة الكوفة) وطالب بالقياس عليها واعتبر كل اسلوب عربي خارج عليها شاذا او لغية يجب اسقاطها من اللغة العربية كتابا وحديثا . وكأنما كان يريد ان يضع قواعد تعليمية ميسرة قد تصلح لغير العرب ، كما نفعل نحن حين ندرس قواعد لغة اجنبية ، فلا ننتهج منها غالبا ـ بادىء ذي بدء ـ الا كل ما هو خاضع للقياس ، او هكذا تفعل الامهات مع اطفالهن الصغار . ولكن هذا ليس بوارد عندما يشب الطفل عن الطوق ، فيخلط في لغته مثل ذويه ويحسنها

احسانهم فيما يتقلب فيه من ظروف حياتـــه الخاصة . وهنا يكمن في نظر الكوفيين خطأ سيبويه حين اراد ان يخضع لغة العرب المنطوقة ويلـــوي عنقها وفق قواعده ذات الهدف التعليمي .

فالكسائي احد المتخرجين من مدرسة الخليل ـ مثل سيبويه ـ واحد القراء السبعة المشهورين لم يعجبه هذا التجني على اللغة . فقد نظر فوجد بعض الايمات القرآنية لا تخضـــع لاقيسة النحـاة ومنطقهم المتشدد ، وكان يتسلح بـوازع ديني متين أبى عليه ان يعتبر تلك الاساليب شاذة ولا يجوز القياس عليها ، بل اعتبرها صـحيحة كصـحة الاساليب القياسية التي ارتضاها النحاة.

وقد مضى على نهجه الكوفيون من بعـده حرصـا على سلامة اللغـة .

وتحضرني هنا المسالة الزنبورية التياختلف عليها العالمان ، في قولهم : « كنت اظن الزنبـــور اشد لسعة من النحلة فاذا هو هي .. او .. فاذا هـو اياها » . فقد قال سيبويه بالقول الاول ، واجاز الكسائي القول الثاني ، ومضى على خلافهما النحـاة الى اليـوم . وهذه العبارة لا تقوم لذاتها فانما هي عينة لامثالها ، وما اجاز الوجهين ـ كما اعتقـد ـ الكسائي الا لان العرب تقول بهما معا .. والى اليـوم .. ولكن في ظرفين مختلفين . وبيان ذلك عندي انك اذا كنت تنقل هذه التجربة نقـلا غيبيا عن سـواك فمالك معدى عن القول « فاذا هو هي » اما اذا كنت تتحدث عن التجربة وقـد عانيتها بنفسك فعندها لا يصح الا ان تقـــول « فاذا هو اياهـا » دلالة على معاناتك الحاضـرة لهـا .

ان ما اعتبره سيبويه ومن اتبعه من مدرسة البصرة امثلة شاذة او لغات او لغيات لا يقـاس عليها يمكننا ان نستشف منها ابعادا معنوية وذوقية خفيت على الاعاجم ومن استعجم من العرب . وما اكثر هذه الشواهد الشاذة عندهم .

فقد عد سيبويه لغة « اكلوني البراغيث » منهـا ، وقال بعدم القياس عليها لانها تخالـــف القاعدة المطردة . ولو كان القول شاذا غريبا منذ زمن طويل ، مع ان الملاحظ انه مستعمل الى حد كبير في كل مكان من الوطن العربي ، وهذا يعنـي ببساطة انه اسلوب عربي خالص فيه سر لم يهتد اليه النحاة الاولون .

ففي قولنا « اكلتني البراغيث » كما ارى ينصب الاهتمام على البراغيث الفاعلة ، ويكـون تمـام القول « فاقض عليها ترحني » . اما فـي قولنـا « اكلوني البراغيث » فانما ينصب الاهتمام على حدث الاكل ذاته دون البراغيث ويكون تمام القول هنا « فانقذني منها » . فهذا الاسلوب الثاني اشـبه ما يكـون بالبناء للمجهول على غرار قولهم في الانكليزيـة :

وله شواهد من القرآن قوله تعالى : فاسروا النجوى الذين ظلموا

ومن الحديث قول النبي : يتعاقبون فيكـم ملائكـة بالليل وملائكة بالنهار

ومن الشعر قول ليلى العفيفة (زوجـــة البـراق) :

غللونـي ، قيدوني ، ضربوا
ملمس العفـة منـي بالعصا

ولم يسيء الى لغة الضاد شيء مثل « نظرية العامل » ، التي جاء بها نحاتنا لتعليل الامور ،وكان باب التنازع وباب الاختصاص وباب الاشتغـــال مهزلة المهازل لدى تطبيقها على لغة الناس .ووصل الحـال ببعضهم الى تلمس الاخطاء ـ بمقتضاها ـ حتى في شعر المتنبي ، وذلك بعد قرنين من وضع قواعدهم ، في مثل قوله :

انا الذي نظـر الاعمى الى ادبـــي
واسـمعت كلماتـي من بـه صمم

وقولـــه :

واني لمـن قوم ... كان نفوسـنا
بها انف ان تسكن اللحم والعظـما

وقولـــه :

لولا مفارقـة الاحباب مـا وجدت
لهـــا المنـايا الى ارواحنا سـبلا

وفاتهم ان يدركوا انه كان في الاول يجيـب على السؤال « من انت ؟ » .. لا على السـؤال « من الذي نظر الاعمى الى ادبه ؟ » ، وفي الثـاني كان يعتبر الحكم ساريا عليه كسريانـه على قومه، لا ساريا عليهم وحدهم دونه ، وفي الثالث لـم يكن تخطئتهم له الا لمجرد تطبيق ما وضعوا مـن نظرية في الضمير العائد الذي لا يتقدم على اسمه ، وان خالفهم الواقع لا في لغة العرب وحدهم بـل في جميـع لغـات النـاس .

وخلاصة القول ان بين اللغات الانسانية نوعا من وشائج القربى وصلات النسب ، وعلى المهتم بلغة الضاد ان يسلح نفسه بثقافة اجنبية ستفيده حتما في نظرته الى لغته القومية وتفهم اسرارها .

وهذه القواعد التي وضعها سيبويه لم يقصد بها ان يجنب الاعراب الخطأ في لغتهم وانما كان الغرض منها ان يجنب الاعاجم اللحن ، وفي سبيل تيسيرها وقع في تناقض كثير ، لانه اراد ان يقومها بالمنطق

وان قواعد اللغة ـ عند وضعها ـ لا يمكن ان تكون غاية في حد ذاتها ، ولو انصف النحاة لاعتبروها وسيلة لفهم اسرار اللغة ، حتى في كل ما جاء على وجهين من باب الجواز ، كما في قول ام عقيل وهي ترقص طفلها

انت تكون ماجد نبيل اذا تهب شمال بليل

لا مجرد الاكتفاء بالقول « ان (تكون) هنا زائدة » فهي قد خصته بالصفتين في حاضره وفي مستقبله خلفا لابيه .

وان اللغة المنطوقة تلقائيا هي الاصل في تفهم اللغة واستنباط قواعدها ، لانها تظل حية ابدا ، كما توصل الى تقريره العلماء المحدثون في دراساتهم اللغوية .

واخيرا ، انا اؤمن باختلاف اللغات عند العرب واعتبرها كلها حجة ، كما ارى ان ما جرى على نسق كلام العرب فهو من كلام العرب .. قياسا او شذوذا .. ولا يجوز ان يتحكم المنطق الذي مجاله الفلسفة في اللغة التي ميدانها الحياة .

● ●